الباب الأول

الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ
في المجالات النظرية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الوضع العام قبل بعثة رسول الله

شاعت في القرنين السادس والسابع للميلاد خرافات وقضايا عجيبة ، وكان وراء ذلك كله بعض الحكام المستبدّين كآل ساسان في بلاد فارس ، حتىٰ وصلت قناعات الناس إلىٰ القول : إن الإمبراطور له الحق بأن يفعل ما يشاء لأنه الأب الوحيد للشعب ، وبالتالي فالدماء التي تجري في عروقه هي من دماء الإلٰه!!

ففي بلاد فارس كانوا يقدّسون النار ويعبدون الشمس ، وساءت أحوالهم السياسية والاقتصادية إلىٰ درجة أن الحاكم أصبح يُخاطب بكلمة الإلٰه ، وأن له من الحقوق ما لا يصح لغيره ، وأن كرسي الحكم أصبح أمراً وراثياً ، فإذا لم يجدوا ذكراً للملك ورّثوا ابنته ، مثال ذلك بوران بنت كسرىٰ .

أما الشعب المسكين البائس فمهمته تقديم الضرائب من أجل حياة الترف والأبّهة والعظمة ؛ التي يعيشها الملك وحاشيته ، إلىٰ درجة لا مثيل لها .

لذا فسد الشعب وتزعزعت أخلاقه حتىٰ إن (يزدجرد الثاني) تزوّج ابنته ، و(بهرام جوبين) تزوج أخته!!

وهكذا تخبّط الناس في البلاد ، فتارةً دعا (ماني) إلىٰ الزردشتية ، وشجّع على تحريم النكاح ، وتارة تطرّف (مزدك) فدعا إلىٰ الإباحية في الأموال والنساء! فقام الفقراء بالثورات ضد الأغنياء ، وكانت النتيجة الخراب والدّمار والفساد .

وأما في بلاد الرومان : فلم يكن الحال أحسن من بلاد الفرس ، بحيث من يستولي علىٰ زمام الحكم يعتبر إلٰهاً ، لذلك كان الناس يسجدون له متمنّين رضاه!

وعاش الشعب حالة التناقض ، فهناك من يدعو للعودة إلىٰ الرهبانية وترك الملذّات والمتع ، وهناك من يحرص علىٰ اللهو واللعب والترف والمجاملات .

وفشت الرشوة والخيانة في المجتمع ، وأصبح العدل كالسلعة يُعرض للبيع والشراء ، وزادت الضرائب والمكوس مما زاد من الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي .

وأما الهند والصين فكان الوضع العام سيئاً ، ففي الهند تعددت الآلهة إلىٰ درجة عبادة نهر الغانج ، أو عبادة أحد

الجبال ، أو عبادة الذهب والفضة! وانتشرت الأساطير والخرافات والعقائد الفاسدة ، واهتم الناس بنصب التماثيل لـ (بوذا) وأعوانه .

بل وصل الأمر إلىٰ أن عبد الرجال النساء العاريات ، وعبدت النساء الرجال العراة ، ولذلك انتشرت الخلاعة وأمور الجنس ، حتىٰ أصبحت المرأة في وضع لا تُحسد عليه ، فهي كالأَمَةْ تُباع وتشرىٰ ، وإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج ولا تُحترم!

وفي الصين عاش الناس عيشة تخبّط ، فهناك أتباع (كونفوشيوس) الذين اهتموا بأمور الدنيا فقط ، وأنكروا وجود إلٰه معين ، وهناك أتباع (لاوتسو) الذين اهتموا فقط بالزهد والتقشّف والرهبانية وما إلىٰ هنالك .

وأما أوروبة فقد خيّم عليها ظلام ليل دامس ، فانتشرت الأميّة والرهبانية والتخلّف ، إلىٰ حدٍّ عقدوا مؤتمراً محوره : هل المرأة حيوان أم إنسان ؟!

وأما اليهود فانتشرت بينهم عادات فاسدة كأكل أموال الناس بالباطل ، وحب المال ، والتعامل بالربا وغير ذلك .

وأما العرب ـ سكان الجزيرة العربية ـ : فبعد أن كانوا

يدينون بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، أصبحوا يشركون بالله عبادة الأصنام التي نحتوها بأيديهم!

وتفاقم الأمر إلىٰ درجة أنهم قدّموا القرابين للأصنام ، وبنوا لها بيوت العبادة ـ الطواغيت ـ وعظّموها كتعظيم الكعبة ، وكان منها : مُناة واللات والعزّىٰ وسعد والأقيصر .

قال ابن الكلبي في كتابه الأصنام : وروي عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً ، جمعنا جُثوةً من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا به!

ثم قال : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلىٰ أحسنها فاتخذه ربّاً ، وجعل ثلاث أسافٍ لقِدْره ، وإذا ارتحل تركه!!

بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ بعد إسلامه ـ كان يقول : إني إذا ذكرت الجاهلية ضحكت ، قيل : ولم ذلك ؟ قال : كان لي إلٰه من تمر ، فإذا عضّني الجوع التفتُّ ذات اليمين وذات الشمال ، فإذا لم أجد من يراني ، أكلت ربي!!

أما تصوّراتهم عن الملائكة والجنّ فكانت مشوشة ، حيث الملائكة بنات الله ، والجن واسطة لهم عند الله ، كما أخبر الله

تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ [الأنعام : ١٠٠] .

وأنكروا البعث بعد الموت : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾

[الجاثية : ٢٤]

وانتشرت بينهم اعتقادات الكهانة والتنجيم والعرافة والسحر والشعوذة والطِّيَرة ، وتعاطوا أنواع الخمور ، ومارسوا الميسر والقمار ، وطافوا بالبيت الحرام عراة ! !

أما الأمور الاجتماعية : فانتشر الزنى والخليلات ، وظُلمت المرأة إلىٰ حدّ عجيب ، وأُريقت الدماء نتيجة حروب طاحنة من أجل أتفه الأسباب ، مثالها حرب البسوس .

وأكثر البلاد ازدهاراً كانت مكة ويثرب ، حيث البيت الحرام محطّ أنظار الزائرين ، وحيث الأسواق التجارية ، ومكانة قريش بينهم ، والمباريات الأدبية ، كما كان يحدث في سوق عكاظ وغيره .

إذاً : كان العالم كله بحاجة ماسّة إلىٰ المنقذ ، الذي يأتي بمنهاج ربّاني بعيدٍ عن تخبّطات الأمور الوضعية ، فكان أن بعث الله النبي ﷺ لينقذ الناس من تلكم الأزمان ، وليخرج

العباد من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله الواحد الديّان ، فكان الرحمة والنور والهداية للناس جميعاً : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٧ـ ١٥٨] .

* * *

الفصل الثاني

الأدلّة الدامغة على عالمية الدعوة إلى الله

وهكذا أرسل الله تعالىٰ خاتم الأنبياء محمداً ﷺ ، فكان نوراً للناس كافة ، وحمل معه رسالة السماء إلىٰ الأرض ؛ وهي القرآن الكريم ، وهو النور للعالمين ، وفصّلت الشريعة الإسلامية جزئيات الأمور ، وكانت نوراً للناس أجمعين ، ففي أي زمان وأي مكان من اتّبع هذه الأنوار فاز في الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عنها عاش في ظلام حالك ، ثم انقلب إلىٰ جهنم وساءت مصيراً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ـ١٦] .

وهكذا فليست الدعوة إلىٰ الله بدعاً في الإسلام الخاتم ، إنما هي امتداد طبيعي لكل ما جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام ، لأن جميع ما في الشريعة الإسلامية يطابق فطرة الإنسان التي فطره الله عليها ، بل عرّف علماؤنا الإسلام بأنه :

الانقياد والامتثال لأمر الآمر بلا اعتراض .

وبناءً علىٰ هذا ، فكل ما في الكون من نباتٍ وأجرام وإنسان وحيوان وما إلىٰ هنالك سيسجد لله رب العالمين ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد : ١٥] . ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] . ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

لكن من رضي بالله رباً فأطاعه دون إكراه ، واتبع نبياً من أنبياء الله كان هو المسلم الحقيقي ، دليل ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٢٩-٣١] .

وقوله : ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

وأما إذا أُطلقت الكلمة ، فإنها تعني من اتبع دين رسول الله

محمد ﷺ ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

لذلك فما جاء في الإسلام يوافق الفطرة الإنسانية ، ويواكب حركة الدعوة في مناهج أنبياء الله ورسله ، والذين تحلّقوا حول مائدة واحدة ، ونهلوا من نبع التوحيد الواحد ، فكان الإسلام بحق هو الدعوة العالمية أولاً وأخيراً ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ في معرض حديثه عن الدين الواحد لكل العالمين : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورىٰ : ١٣] .

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

أي أن الإسلام هو خلاصة ما سبقه من أديان وشرائع ، قال الله تعالىٰ عن الأنبياء السابقين : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وقال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

إذاً : ما الأدلة الوافية علىٰ عالمية الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ؟!

في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وفي الكتب السابقة أدلة وافية علىٰ عالمية الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وكذلك في غالبية أمور الفقه والشريعة الإسلامية أدلة كافية علىٰ عالمية الدعوة إلىٰ الله ، ولعلّ أهمها ـ وبشكل مختصر ـ :

١ ـ في الكتب السماوية السابقة :

ما من نبيّ أو رسول إلا بلّغ قومه بأن إذا جاءكم خاتم الأنبياء محمد ﷺ فاتبعوه فهو الأساس وهو الخاتم ، ولذلك كانوا يعرفون مجيء رسول الله ويترقبونه ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وقد جمع كتّاب التاريخ والسير بعض هذه البشارات والصفات التي وردت في الكتب السماوية السابقة ، والتي تختص بالنبي العالمي ﷺ ، ومنها :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أُمر إبراهيم عليه السلام بإخراج هاجر حُمل علىٰ البراق ، فكان لا يمرُّ بأرضٍ عذبةٍ سهلةٍ إلا قال : انزل ها هنا يا جبريل ، فيقول : لا ، حتىٰ أتىٰ مكة ، فقال جبريل : انزل يا إبراهيم ، قال : حيث

لا ضرع ولا زرع ؟ قال : نعم ها هنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتمّ به الكلمة العليا[1] .

وقال وهب بن منبّه في قصة ما أوحىٰ الله إلىٰ داود في الزبور :

يا داود ، إنه سيأتي من بعدك نبيّ يسمىٰ : أحمد ومحمداً ، صادقاً سيداً ، لا أغضب عليه أبداً ، ولا يغضبني أبداً ، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، وأمته مرحومة ، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء ، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت علىٰ الأنبياء والرسل ، حتىٰ يأتوني يوم القيامة نورهم مثل نور الأنبياء ، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهّروا لي لكل صلاةٍ ، كما افترضت علىٰ الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم .

يا داود ، فإني فضّلت محمداً وأمته علىٰ الأمم كلها : أعطيتهم ست خصالٍ لم أعطها غيرهم من الأمم : لا أؤاخذهم

---

(١) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد : ١/ ١٦٣ .

بالخطأ والنسيان ، وكل ذنبٍ ركبوه على غير عمدٍ إذا استغفروني منه غفرته لهم ، وما قدّموا لآخرتهم من شيء طيّبةً به أنفسهم عجّلته لهم أضعافاً مضاعفةً ، ولهم في المدخور عندي أضعافاً مضاعفةً وأفضل من ذلك ، وأعطيتهم على المصائب في البلايا إذا صبروا وقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون الصلاة والرحمة والهدىٰ إلىٰ جنات النعيم ، فإن دعوني استجبت لهم ، فإما أن يروه عاجلاً ، وإما أن أصرف عنهم سوءاً ، وإما أن أدّخره لهم في الآخرة .

يا داود ، من لقيني من أمة محمدٍ يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقاً بها فهو معي في جنّتي وكرامتي ، ومن لقيني وقد كذّب محمداً ، وكذّب بما جاء به ، واستهزأ بكتابي صببتُ عليه في قبره العذاب صباً ، وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره من قبره ، ثم أدخله في الدّرك الأسفل من النار[1] .

وعن محمد بن كعب القرظي قال : أوحىٰ الله إلىٰ يعقوب أني أبعث من ذريتك ملوكاً وأنبياء ، حتىٰ أبعث النبيّ الحرميَّ

---

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، للإمام البيهقي : ١/ ٣٨١ .

الذي تبني أمته هيكل بيت المقدس ، وهو خاتم الأنبياء ، واسمه أحمد[١] .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً[٢] للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سمّيتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظٍ ، ولا سخّابٍ[٣] في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إلٰه إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً[٤] .

وروىٰ بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أوحىٰ الله إلىٰ بعض أنبياء بني إسرائيل : اشتدّ غضبي عليكم من أجل ما ضيّعتم من أمري ، فإني حلفت لا يأتيكم روح

---

(١) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد : ١/ ١٦٣ .
(٢) الحرز : هو المكان المنيع الذي يلجأ إليه .
(٣) السخب : الصياح .
(٤) صحيح البخاري : ٦/ ١٦٩ ، مسند الإمام أحمد : ٢/ ١٧٤ .

القدس حتىٰ أبعث النبيّ الأُميّ من أرض العرب الذي يأتيه روح القدس[1] .

وعن سهلٍ مولىٰ عتيبة أنه كان نصرانياً من أهل مريس ، وأنه كان يتيماً في حجْر أمه وعمه ، وأنه كان يقرأ الإنجيل ، قال : فأخذت مصحفاً لعمتي فقرأته حتى مرّت بي ورقة ، فأنكرت كتابتها حين مرّت بي ومسستها بيدي ، قال : فنظرت فإذا فصول[2] الورقة ملصقٌ بغراءٍ ، قال : ففتقتها ، فوجدت فيها نعت محمد ﷺ : أنه لا قصيرٌ ولا طويلٌ ، أبيض ، ذو ضفرتين ، بين كتفيه خاتم ، يكثر الاحتباء ، ولا يقبل الصدقة ، ويركب الحمار والبعير ، ويحتلب الشاة ، ويلبس قميصاً مرقوعاً ، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر ، وهو يفعل ذلك ، وهو من ذريّة إسماعيل اسمه أحمد .

قال سهل : فلما انتهيت إلىٰ هذا من ذكر محمدٍ ﷺ جاء عمّي ، فلما رأىٰ الورقة ضربني وقال : مالك وفتح هذه الورقة وقراءتها ؟

---

(١) طبقات ابن سعد : ١/ ١٦٧ .

(٢) فصول : أجزاء .

فقلت : فيها نعت النبي ﷺ أحمد ، فقال : إنه لم يأت بعدُ[1] .

٢ـ في القرآن الكريم والسنّة الشريفة :

أنزل الله سبحانه وتعالىٰ القرآن الكريم علىٰ سيدنا رسول الله ﷺ ، لكنه لم يختص فئة معينة ، ولا جنساً محدداً ، ولا أمة بحدّ ذاتها ، إنما كان الهداية والنور للعالمين أجمعين ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

وكلمة العالمين تشتمل على جميع العوالم وفي كل مكان وزمان ، وهذه هي العالمية الحقّة .

قال تعالىٰ مخاطباً النبي ﷺ :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٦ـ ٨٨] .

وأكّد ذلك في معرض حديثه عن مؤامرات المشركين لإسقاط موقع الرسول ﷺ وإرباك الساحة كلها ، وذلك من جرّاء استهزائهم وما إلىٰ هنالك : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ

---

(١) طبقات ابن سعد : ١/ ٣٦٣ .

﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

[القلم : ٥١ـ٥٢]

وفي معرض نفي الله سبحانه وتعالىٰ الجنون عن رسوله ﷺ ، يؤكد البيان الإلهي علىٰ أن القرآن الكريم ليس من كتابة محمد ﷺ إنما هو كلام الله المنزّل بوساطة جبريل .

ثم يخاطب أهل مكة ـ ومن سار علىٰ دربهم ـ ليقول لهم : ففي أيّ طريقٍ تسلكون في تكذيبكم للقرآن ، واتهامكم له بالسحر والشعر والكهانة وما إلىٰ هنالك ؟ وما القرآن الكريم إلا موعظة وتذكرة لجميع خلق الله ، قال الله تعالىٰ :

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٥ـ٢٩] .

وبالتالي فهذه العالمية في الدعوة رافقت تاريخ الدعوة من أوله ، فمنذ بدأ تنزّل القرآن العالمي علىٰ الرسول العالمي ﷺ ، كانت الإشارات توحي أن هذه الدعوة ليست بالأمر السهل ، إنما هي حمل ثقيل ، قال الله تعالىٰ في ثالث سور القرآن ـ بالتنزيل ـ بعد الحديث عن الدورة التدريبية ، ليكون الرسول ﷺ علىٰ استعداد كامل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ

﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل : ١ـ٥] .

وفي السورة الرابعة ـ بالتنزيل ـ جاء الأمر الإلهي للنبي ﷺ بأن يشمّر عن سواعد الجدّ ، ويتحمّل مشاق الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، لأنه هو النذير ، لا لأهل مكة فحسب ، ولا لأهل الجزيرة العربية ، وإنما هو النذير لجميع البشر ، قال تعالىٰ يخاطب النبي ﷺ وهو في بدايات العهد المكي : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر : ١ـ٢] .

وفي أواسط السورة يقول الله تعالىٰ : ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر : ٣٥ـ٣٧] .

وفي هذا وغيره دليل واضح علىٰ أن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ حملت طابع العالمية، ومنذ الفترات الأولىٰ التي وُجدت فيها .

أي أن القرآن الكريم كله ـ في أحكامه وغاياته ، في مناهجه وشموله ، في تحدّيه وبياناته ـ يحمل صفة العالمية ، ولذلك إذا استعرض الإنسان آيات القرآن الكريم رأىٰ الكثير منها يحمل صفات العالمية ، من خطابٍ للناس جميعاً ، ومن خطابٍ لبني آدم ، ومن خطابٍ للبشر ، ولنضرب بعض الأمثلة :

في الخطاب للعباد جميعاً يقول الله تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ويقول تعالىٰ : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩-٥٠] .

ويقول تعالىٰ : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت : ٥٦] .

وتارة يكون الخطاب للناس جميعاً ، وفيه الدلالة الواضحة علىٰ عالمية القرآن والنبي ﷺ ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

كل ذلك يدلنا علىٰ عالمية القرآن الكريم وعالمية رسول الله ﷺ ، لأن الله لم يقل : لقد أرسلناك للعرب ، ولم يقل : لقد أرسلناك للبشر البيض أو السود فقط ، إنما الحديث

القرآني الواضح ، أن الله أرسله للبشر أجمعين ، فمن اتبع دعوته فاز في الدنيا والآخرة ، ومن سار علىٰ غير نهجه شقي وتعس ، ذلك لأن الله ختم الكتب السماوية بالقرآن ، ليكون الكتاب الأخير والعالمي ، وكذلك ختم الرسل والأنبياء بمحمد ﷺ ، ليكون الرسول الخاتم والعالمي ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : ١٨ـ٢٠] .

وتارة يكون الخطاب العالمي القرآني يتمثل بالتوجُّه لجميع الخلق أو جميع بني آدم ، وذلك عن طريق استخدام كلمة الإنسان ، وهي لا تدل علىٰ الفرد الواحد ، إنما علىٰ كل من يحمل هذه الصفة ، وهي الإنسانية ، مثال ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١ـ٣] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٦ـ٨] .

وتارة يأتي القرآن الكريم بمصطلح (أهل القرىٰ) ويعني

بذلك كل من يجتمع في هذا المكان ، أي كل الناس ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

[الأعراف : ٩٧ـ ٩٩]

وتارة يحمل الخطاب الإلهي مصطلح (الأمة أو الأمم) ليدل علىٰ عالمية القرآن والرسول من حيث إرسالها للأمم كلها دون تمييز بين شعب وآخر ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : ١١٨ـ ١١٩] .

قال الحافظ ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) رحمه الله تعالىٰ في معرض تفسير هذه الآيات :

يخبر تعالىٰ أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ [يونس : ٩٩] . وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾ [هود : ١١٨ـ ١١٩] أي : ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم

وآرائهم ، قال عكرمة : مختلفين في الهدىٰ ، وقال الحسن البصري : مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضاً ، والمشهور الصحيح الأول .

وقوله : ﴿إلا من رحم ربك﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم حتىٰ كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه ، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية ، كما في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً : « إن اليهود افترقت علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة ، قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي » رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة ، وقال عطاء : (ولا يزالون مختلفين) يعني اليهود والنصارىٰ والمجوس ﴿إلا من رحم ربك﴾ يعني الحنيفية ، وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

وقوله : ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه : وللاختلاف خلقهم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن

عباس رضي الله عنهما : خلقهم فريقين ، كقوله : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود : ١٠٥] . وقيل : للرحمة خلقهم ، قال ابن وهب : أخبرني مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح عن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثرا ، فقال طاوس : اختلفتما وأكثرتما ، فقال أحد الرجلين : لذلك خلقنا ، فقال طاوس : كذبت ، فقال : أليس الله يقول : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٨ـ١١٩] قال : لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة ، كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ، ويرجع معنىٰ هذا القول إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقيل : بل المراد وللرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٨ـ١١٩] قال : الناس مختلفون علىٰ أديان شتىٰ ﴿إلا من رحم ربك﴾ فمن رحم ربك غير مختلف ، فقيل له : لذلك خلقهم ، قال : خلق هؤلاء لجنّته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لعذابه . وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش .

وقال ابن وهب : سألت مالكاً عن قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٨-١١٩] قال : فريق في الجنة وفريق في السعير ، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيدة الفراء ، وعن مالك فيما روينا عنه في التفسير : ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال : للرحمة ، وقال قوم : للاختلاف ، وقوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود : ١١٩] يخبر تعالىٰ أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجّة البالغة ، والحكمة التامة .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبّرين ، فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ، وقال للنار : أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتىٰ ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة ،

وأما النار فلا تزال تقول : هل من مزيد ؟ حتىٰ يضع عليها رب العزّة قدمه ، فتقول : قط قط وعزتك »[1] .

وتارة يأتي الحديث عن عالمية الرسالة عن طريق استخدام مصطلح ﴿الأولين والآخرين﴾ كما في قول الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة : ٤٩ـ٥٧] .

وتارة يستدل القرآن عن عالمية الرسالة وخاتم الرسل عليه وآله الصلاة والسلام باستخدام مصطلح ﴿الإنس والجن﴾ ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٥ـ٥٨] .

وتارة يستخدم البيان الإلهي مصطلح (العالمين) ليدل علىٰ أن الحديث الدعوي للقرآن والسنة لا يتوجه إلى فئة أو أمة أو شعب فقط ، إنما الحديث عام وعالمي ، مثال ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٥٨٦ـ٥٨٧ .

لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ١-٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : يقول تعالىٰ حامداً لنفسه الكريمة علىٰ ما نزل علىٰ رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف : ١-٢] . وقال هاهنا : ﴿تبارك﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿الذي نزل الفرقان﴾ نزل فعل من التكرر والتكثر كقوله : ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] . لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً آيات بعد آيات ، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سور ، وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه ، كما قال في أثناء هذه السورة : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢-٣٣] . ولهذا سماه هاهنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدىٰ والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام .

وقوله : ﴿على عبده﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلىٰ عبوديته ، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] .

وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إلىٰ الله ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] . وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] . وقوله : ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي : إنما خصّه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] . الذي جعله فرقاناً عظيماً ليخصّه بالرسالة إلىٰ من يستظل بالخضراء ويستقل علىٰ الغبراء ، كما قال ﷺ : « بعثت إلىٰ الأحمر والأسود » وقال : « إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ـ فذكر منهن ـ : كان النبيّ يُبعث إلىٰ قومه خاصة وبُعثت إلىٰ الناس عامة » . كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

أي : الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذي يحيي ويميت ، وهكذا

قال هاهنا : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك ، ثم أخبر أنه ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره[1] .

وهكذا نرىٰ الآيات تلو الآيات ، والتي تدلّ علىٰ عالمية الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ .

أختم ذلك كله بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩ـ٤٠] .

وعالمية الرسالة هي الميثاق الذي أخذه الله علىٰ جميع الرسل والأنبياء السابقين ، وملخّصه أن يبلغ كل نبيّ أو رسول قومه بأن يؤمنوا بنبي آخر الزمان وينصروه ، لأنه النبي العالمي الخاتم ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥/ ١٣٣ـ١٣٤ .

لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨١ـ٨٣] .

أما الأدلّة علىٰ عالمية القرآن والسنة من فم من لا ينطق عن الهوىٰ ﷺ فهي كثيرة جداً ، ولا يمكن حصرها في مثل هذا الكتيب ، لكن يكفي نقل بعضها من باب التذكير :

في سنن الترمذي ومسند أحمد بالسند المتصل إلىٰ الطفيل بن أبي كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنىٰ داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون : لو تمّ موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » .

وفي مسند أحمد بالسند المتصل إلىٰ أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبيّ » .

وفي المسند بالسند المتصل إلىٰ عبد الله بن ثابت قال :

جاء عمر إلىٰ النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني أمرت بأخ يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغيّر وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترىٰ وجه رسول الله ؟ قال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً ، قال : فسري عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسىٰ عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

وفي المسند بالسند المتصل إلىٰ تميم الداري رَضِيَ اللهُ عنهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً أو يذلّ ذليلاً ، عزّاً يعزّ الله به الإسلام وذلاً يذلّ الله به الكفر » .

وفي المسند بالسند المتصل إلى النواس بن سمعان قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلىٰ جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة ، وعلىٰ باب الصراط داعٍ يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك

لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعي علىٰ رأس الصراط كتاب الله ، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » .

وفي المسند أن النبي ﷺ خطب ذات اليوم فقال : « أيما رجل سببته في غضبي أو لعنته فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون ، وإنما بعثني الله رحمة للعالمين ، فأجعلها صلاة عليه يوم القيامة » .

فصلىٰ الله وسلم علىٰ خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، الذي ختم الله به الرسالات ، وجعل رسالته هي الرسالة العامة العالمية ، فمن سار علىٰ نهج القرآن والسنة فاز في الدنيا والآخرة .

وهذا أمر واضح وصريح ، حيث إن جميع الأنبياء والرسل السابقين أرسل كل واحدٍ منهم لقومه خاصة ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح : ١] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

وهكذا الجميع عليهم السلام ، أما رسول الله ﷺ فصريح الآيات أنه أُرسل للناس كافة ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

وهذه خاصية انفرد بها رسول الله ﷺ عن بقية الأنبياء[١] ، ليكون الرحمة المهداة لجميع الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

٣ـ الشريعة الإسلامية عالمية عامة :

الشرع ، والشريعة ، والشرعة في اللغة : الطريق الظاهر الذي يوصل منه إلىٰ الماء ، يقال : شرعت الإبل شرعاً وشروعاً : إذا وردت الماء .

والشرع في الاصطلاح : ما سنّه الله لعباده من الدين وأمرهم باتباعه[٢] .

---

(١) للتوسع يراجع : حديث القرآن الكريم عن خصوصيات سيد المرسلين ، للمؤلف : ٧٠ـ٨٦ .

(٢) روح المعاني للآلوسي : ٤/ ٢٨٣ .

وكل الشرائع السماوية من مصدر واحد ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ ، لذلك فهي متحدة بالأصول : كالوحدانية ، والإيمان بالبعث ، والحساب ، والجنة والنار .

وقد تختلف عن بعضها في الأحكام الفرعية حسب اختلاف المكان والزمان والظروف .

مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورىٰ : ١٣] .

لكن ما يجب التركيز عليه هو أن الشريعة الخاتمة هي الشريعة الوحيدة الكاملة .

مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة : ٣] . فليس فيها نقص أو قصور ، وهي مستعدة للإجابة عن كل مشاكل الإنسان وأزماته ، وهي عامة تتصل بحاجيات الإنسان كلها ، من أمور دنيوية أو دينية ، ذلك لأنها لكل الناس ، لا يحددها حدود جغرافية ولا تاريخية ، إنما منذ أرسل الله نبينا محمداً ﷺ وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لذلك : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى

﴿ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

من هنا نفهم السرّ في عدم ورود العالمية للدعوة إلىٰ الله تعالىٰ في التوراة ، لأن التوراة جاءت خاصة لبني إسرائيل وكذلك موسىٰ عليه السلام ، وكل نبيّ جاء إلىٰ قومه خاصة وحمل لهم ما بلغه الله به ، أما الرسول العالمي الخاتم ، فهو الوحيد الذي وُصف بالعالمية ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ : ٢٨] .

وهكذا تُعتبر الشريعة الإسلامية ناسخة لكل الشرائع التي قبلها ، ورحم الله الإمام ابن حزم (ت :٤٥٦هـ) عندما قال :

مسألة (١٠) ـ وأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله إلىٰ جميع الإنس والجن كافرهم ومؤمنهم ، برهان ذلك : أنه عليه السلام أتىٰ بهذا القرآن المنقول إلينا بأتمّ ما يكون من نقل التواتر ، وأنه دعا من خالفه إلىٰ أن يأتوا بمثله فعجزوا كلهم عن ذلك ، وأنه شق له القمر ، قال الله عز وجل : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤

حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر : ١ـ٥] .

وحنّ الجذع إذ فقده حنيناً سمعه كل من حضره ، وهم جموع كثيرة ، ودعا اليهود إلىٰ تمني الموت إن كانوا صادقين ، وأخبرهم أنهم لا يتمنونه فعجزوا كلهم عن تمنّيه جهاراً ، ودعا النصارىٰ إلىٰ مباهلته فأبوا كلهم ، وهذان البرهانان مذكوران جميعاً في نص القرآن كما ذكر فيه تعجيزه جميع العرب عن أن يأتوا بمثله أولهم عن آخرهم ، ونبع لهم الماء من بين أصابعه ، وأطعم مئين من الناس من صاع شعير وجدي ، وأذعن ملوك اليمن والبحرين وعمان لأمره للآيات التي صحت عندهم عنه ، فنزلوا عن ملكهم كلهم طوعاً دون رهبة أصلاً ، ولا خوفاً من أن يغزوهم ولا برغبة رغبهم بها بل كان فقيراً يتيماً ، وهناك قوم يدعون النبوة كصاحب صنعاء وكصاحب اليمامة كلاهما أقوىٰ جيشاً وأوسع منه بلاداً ، فما التفت لهم أحد غير قومهما وكان هو أضعفهم جنداً وأضعفهم بلداً وأبعدهم من بلاد الملوك داراً ، فدعا الملوك والفرسان الذين قد ملؤوا جزيرة العرب ـ وهي بنحو شهرين في نحو ذلك ـ إلىٰ إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإسقاط الفخر والتجبّر والتزام التواضع والصبر للقصاص في النفس فما دونها من كل حقير أو رفيع ، دون أن يكون معه مال ولا عشيرة تنصره ، بل اتبعه كل

من اتبعه مذعناً لما بهرهم من آياته ، ولم يأخذ قط بلدة عنوة وغلبة إلا خيبر ومكة فقط ، وفي القرآن العظيم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١ـ١٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

مسألة (١١) ـ نسخ عز وجل بملّته كلّ ملّة ، وألزم أهل الأرض جنّهم وإنسهم اتباع شريعته التي بعثه بها ولا يقبل من أحد سواها ، وأنه عليه السلام خاتم النبيين لا نبيّ بعده ، برهان ذلك : قول الله تعالىٰ : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور نا وهب بن ميسرة ثنا محمد بن وضا ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا عبد الله بن إدريس عن المختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال : قالَ

رسولُ اللهِ ﷺ : « إن النبوة والرسالة قد انقطعت ، فجزع الناس ، فقال : قد بقيت مبشرات وهنّ جزء من النبوة »[1] .

ونسخ الشريعة الخاتمة للشرائع السابقة تعزّزه عدّة أمور أهمها :

أن الكتب السابقة قد طالتها يد التزوير والتحريف أو الفناء ، ولم يبق إلا القرآن الكريم كما أنزله الله علىٰ قلب المصطفىٰ ﷺ ، كذلك خصوصية كل نبي لأمته ، بينما عالمية وعامة الرسول الخاتم في دعوته إلىٰ الله تعالىٰ .

إذاً : القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين علىٰ قلب النبيّ الأمين ، وكل الناس عاجزون عن الإتيان بمثله أو شبيه به ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وفي القرآن حلول لمشاكل الناس قديماً وحديثاً ، كما أخبر النبي ﷺ : « فيه نبؤكم وخبر من قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يتخلقه طول الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل » وهذا شارح لقول الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ

---

(١) المحلّى : ١/٨ـ٩ .

أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل : ٦٤] .

لذلك فلا حلّ أمام البشرية إلا بالعودة إلىٰ منهج القرآن الكريم ، حيث الطمأنينة والسعادة والحياة الرغيدة في طياته ، كما قال تعالىٰ :

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه : ١-٩] .

وهكذا سار القرآن مع الإنسان خطوةً خطوة يدلّه علىٰ الطريق القويم ويخرجه من ظلمات الحياة إلىٰ نور وهدي الدين الحق ، وهذا الكلام قابل للتطبيق في كل وقت وحين ، وفيه الدليل الواضح علىٰ عالمية هذا الدين الحنيف .

فعندما يتحدث القرآن عن نشأة الإنسان يقول الله تعالىٰ :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾

[الإنسان : ٢]

ثم يحدثنا عن تسلسل تطوره ، يقول الله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ

﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٢ـ١٤] .

ولما شاء الله تعالىٰ لهذا الإنسان الخروج إلىٰ هذه الدنيا ، صور القرآن المسألة بدقة ، وذلك في قول الله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٧٨] .

ثم كانت فترة الرضاعة ، فكان القرآن الكريم أكثر اعتناءً بالإنسان في هذه الفترة ، حيث وضع الضوابط لفترة الرضاعة ، قال تعالىٰ : ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ثم يتوجّه القرآن الكريم إلىٰ الآباء والأمهات ليوصيهم بأن ينفقوا علىٰ الأولاد ، ويشعروهم بالمودة والألفة ، ليعيش

الجميع في ظلال الحياة الأسرية السعيدة ، قال الله تعالىٰ :
﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ [الطلاق : ٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾ [الروم : ٢١] .

حتىٰ إذا حدثت خلافات في الحياة الزوجية ، فالقرآن الكريم يوجه الزوجين إلىٰ الانضباط بقواعد التفاهم والمحبة والمعروف . قال تعالىٰ :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

وقال عز وجل : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٥] .

ولكيلا تحدث مشاكل جراء الاختلاف في أمور الميراث ،

حدّد القرآن القضية بدقة ، قال تعالىٰ :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٢] .

وأكد القرآن علىٰ عدم المساس بالأيتام إلا بالتي هي أحسن ، وذلك بهدف ابتعاد الناس عن الظلم والإجحاف بحقوقهم ، قال تعالىٰ :

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

ثم يتوجه القرآن إلىٰ ذوي الأمر بأن ينصحوا أولادهم ، ويربوهم علىٰ الأخلاق والآداب الرفيعة ، من ذلك قوله تعالىٰ في معرض حديثه عن موعظة لقمان الحكيم : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٦ـ١٩] .

وهكذا يؤكد علىٰ أمور العقيدة ، مثال ذلك قوله تعالىٰ في معرض التأكيد علىٰ سلامة العقيدة ، عن طريق النظر والتأمل والتفكر في كل ما في الكون : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٦١] .

وهكذا في كل حركة من حركات الإنسان نرىٰ القرآن الكريم قد واكب المسيرة واعظاً موجهاً ناصحاً ، حتىٰ يوصله إلىٰ دار الأمان بإذن الله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [الحديد: ١٢-١٣] .

فالبركة في القرآن ، فمن أراد الحياة الهادئة السعيدة فعليه اتباع منهج القرآن ، والتأمل فيه ، والاسترشاد بهديه ، ففيه أن يجد الناس حلاً سريعاً لكل مشاكلهم إذا التزموا بالقرآن والسنة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء : ٩] . لكن إن لم تعد المجتمعات إلىٰ القرآن العالمي والنبي الخاتم العالمي والشريعة الإسلامية العالمية ، فهذا يعني الشقاء والنكد ، وهذه حقيقة نراها بأم أعيننا علىٰ ساحة الواقع العالمي المعاصر ، قال الله تعالىٰ : ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم : ٤٤-٤٥] .

لأن المسألة ليست بهرجةً وزينة في الدنيا ، إنما القضية محسومة ودقيقة ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٣٩-٤٠] . فتراكم أنواع الضلالات علىٰ الكفار ، تجعل قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم في ظلمات شديدة كثيفة ، إلىٰ درجة أنهم لم يعودوا يستطيعون تمييز الحق من الباطل .

وما أكثر الظلمات المحيطة بالكفرة : فهناك ظلمات القول ، وهناك ظلمات العمل ، وهناك ظلمات الاعتقاد .

كل هذا يؤدي إلىٰ إحباط أعمال الكفار في الدنيا والآخرة ، لأنها لا تعتمد علىٰ المحور الرئيسي للدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وهو التوحيد المطلق ، وصدق الله بقوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ـ١٠٦] .

* * *